من تراثنا الخالد

رجال السلف ونساؤه

الإمام العلامة

عبد الحميد بن باديس

الناشر

مكتبة

الشركة الجزائرية

مؤسسة ثقافية

مرازقة بوداود وشركاهما

رجال السلف ونساؤه

للإمام العلامة

عبد الحميد بن باديس

جمع وتصنيف ومراجعة وتعليق وتقديم

الأستاذين

محمد الصالح رمضان
مدير التعليم الديني بوزارة أوقاف
الجزائر سابقا

توفيق محمد شاهين
بمجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر

الناشر

مكتبة

الشركة الجزائرية

مؤسسة ثقافية

مرازقة بوداود وشركاهما

٢٤ نهج باب عزون - الجزائر - الهاتف ٦٢٧٦٥٦ ١٢٧٦٥٦

الطبعة الأولى
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« محمد رسول الله

والذين معه

أشداء على الكفار

رحماء بينهم

تراهم ركعاً سجداً

يبتغون فضلا من الله ورضوانا

سيماهم فى وجوههم من أثر السجود

ذلك مثلهم فى التوراة .

ومثلهم فى الإنجيل :

كزرع أخرج شطأه ، فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع

ليغيظ بهم الكفار .

وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما »

صدق الله العظيم .

تقـــديم

* إذا كانت الأيام لم تتح للـكثيرين من معاصرينا . . اللقاء بالإمام عبد الحميد بن باديس . . فليس أمامنا فى الالتقاء بهذا الرجل العظيم سوى تتبع آثاره ، وإرهاف السمع لأخباره ، فقد كانت سجايا هذا الإنسان السوى تملأ الزمان والمـكان عظمة العلماء ، وزهد الأقوياء ، وقوة الودعاء ووداعة الأقوياء . .

* وفى كل أثر من آثار الإمام إذن سنلتقى فى إجلال وإكبار بباعث النهضة الجامعة فى الجزائر والمغرب العربى .

وإن الظروف التى أزجت شخصية ابن باديس ، والعصر الذى عاش فيه ، ثم السلوك القويم الذى سلـكه .. كل ذلك يكشف عن جوهر طبيعته الفذة ، ويـكشف بالتالى عن تفوقها وإنسانيتها :

* فـكان ابن باديس نمطاً فريداً للعالمين والعاملين ، يسير وفق إيمان مستنير ، يرفض التبعية ، ويستعلى على الإذعان ، ويرفض مناعم الدنيا ذلك ، ليتهيأ لرسالة كبرى ، وجهاد شاق مرير ، حتى ملأ الرحب بنشاطه وجاوز كل حدود قدرته .

* وحمل عبد الحميد بن باديس نفسه مسئولية الريادة والقيادة ، ومن

ثم حرم نفسه من طيبات الدنيا ، لا لعجز عنها؛ فقد كان فى مقدوره أن يحيا حياة الملوك والسلاطين . وإنما زهد فى ذلك لقوة روحه ، وعظمة نفسه ، وحمل مسئولية القدوة ، فاختار الكفاف والشظف فى دنياه ، ولم يكن لمباهج الحياة مكان فى دنياه :

فلا الفرش مرفوعة ، ولا الأكواب موضوعة ، ولا النمارق مصفوفة، ولا الزرابى مبثوثة : ولم ينم إلا غباً ، ولم يأكل إلا تقوتاً ، ولم يلبس إلا الخشنا !!

وهكذا عاش ابن باديس للأسوة الحسنة والقدوة الحميدة .

* ولد إمامنا فى ليلة جمعة لليوم الرابع من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٩م بمدينة قسنطينة فى شرق الجزائر ، . فكان الابن البكر لوالديه ، كما كان الابن البكر للجزائر والمغرب العربى ! !

* وحفظ القرآن الكريم مبكراً ومتفوقاً على جميع أقرانه . وأكب على مطالعة كل ما تصل إليه يده . . فتربى على حب الاستزادة من العلم والاحتفال به .

* واختار طريق العلم والتعلم على شيوخ عصره ، ثم سافر إلى جامعة الزيتونة بتونس وتخرج فيها ، وعمل بوصية أستاذه الشيخ حمدان الونيسى بأن يقرأ العلم للعلم لا للوظيف أو الرغيف ، وأوصى الإمام تلامذته بهذه الوصية بعدئذ حتى يعيشوا أحرارا .

* وحج الإمام بعد تخرجه من الزيتونة، وطاف ببعض البلاد الإسلامية مستطلعا دارسا ، ثم عاد إلى مسقط رأسه — قسنطينة — ليتصدر للتعليم والتوجية والإرشاد . غير عابىء بما يكتنفه من صعاب ولا يسأل على ذلك أجراً إلا من الله ، حتى أثمر غرسه ! وأينع ثمره ، وترك للجزائر — بعد ربع قرن من الجهاد الدائب — غيضاً ثرا ! ومعيناً لا ينضب من الرجال الأكفاء ، وحفظ للإسلام بقاءه ونقاءه ، وللعربية جلالها وحياتها .

ومن أقواله المأثورة :

« الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء إذا واتتها الظروف » .

فعمل من جانبه على إتاحة هذه الظروف لها .

وراح يعمل فى كل جوانب الإصلاح لبعث قومه من جديد .

* وقصر حياته على خدمة الإسلام والجزائر ، وله مقالة قيمة تعتبر دستوره الذى التزمه طول حياته بعنوان : لمن أعيش ؟

أعيش للاسلام والجزائر .

* وسنثبت هـذه المقالة فى ختام هذا الكتيب لنفاستها ، ولتكون النبراس لمن يريد أن يلتزم الجادة ، ويعمل فى الحقل الوطنى والإسلامى .

* ولقى الإمام ربه فى ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠ م ، وما زالت الألسنة ترطب بذكره حتى الآن ، وبعد الآن ، وتهش القلوب لذكراه ، ويضرب المثل بأقواله وأعماله وصفاته : رحمه الله رحمة واسعة ، وأكرم مثواه .

* * *

* ولما كان للقصة أثرها فى التربية ، ومكانتها فى التوجيه ، ومن السيرة الطيبة تلتمس العبرة ، وينتزع المغزى ، وتتضح معالم السلوك السوى لما كان ذلك – رأى الإمام أن يجعل من أبواب مجلته – «الشهاب» بابا للقصة الهادفة ، والسيرة النقية الطاهرة لرجال السلف ونسائه ، واتخذ من القرآن الكريم ، والسنة النبوية دائماً شعاره : فجعل للقصة شعاراً هو قوله تعالى : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » . وجعل لباب رجال السلف ونسائه شعاراً هو : قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم :

وكل خير اتباع من سلف ، وكل شر فى ابتداع من خلف ، « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

* ويسرنا أن ننشر هذا الكتيب للإمام عن « رجال السلف ونساؤه » .

وهى فصول ممتعة من السيرة الطيبة العطرة لرجال السلف ونسائه لم يقصد الإمام بها تأريخاً ، وإنما قصد لفت النظر إلى مواطن العبر فى سيرة أصحابها

لتكون المشعل الهادى لحياتنا ، ولتضىء جانباً من جوانب شخصيات الإسلام العظيمة .

* وبنشر مثل هذه الآثار نعرض بعض أعمال الإمام ، ونستشف العبرة من جهاده وثباته فى حياته التى هى ليست حياة فرد، وإنما هى حياة أجيال .

وسنجد أئمة ممن يؤتم بهم فيما اضطلعوا به من أمانة العقيدة ، وأمانة الفكر ، وأمانة الخير ، وأمانة الحق ، وأمانة الإخلاص للخلق والخالق فى كل مايتولاه الإنسان — الجدير باسم الإنسان — من نية وعمل ومن سر وإعلان .

* والله نسأل : أن تتضافر الجهود الخالصة ، وتتوافر الهمم العالية وتتعاون الألسنة والأقلام الخيرة لخدمة هذا الدين الحنيف ، وتاريخه ، ولسانه ، حتى ترتفع رايته عالية خفاقة .

إنه نعم المولى ، ونعم النصير .

محمد الصالح رمضان — توفيق محمد شاهين

ربيع الثانى سنة ١٣٨٦

أغسطس سنة ١٩٦٦

رجال السلف ونساؤه

هذا باب جديد فتحناه فى «الشهاب» .

أردنا منه أن يطلع القراء على تراجم بعض رجالنا ونسائنا من سلفنا الصالح وما لهم من صفات أكسبهموها الإسلام ؛ وما كان منهم من أعمال فى سبيله .

ففى ذلك ما يثبت القلوب ، ويعين على التهذيب ، ويبعث على القدوة ، وينفخ روح الحياه ، وما حيى خلف إلا بحياة سلف ، وما حياة السلف إلا بحياة تاريخهم ، ودوام ذكرهم .

ولسنا هنا لتتبع الأخبار واستيعاب الحوادث ، وإنما نقتصر على ما يحصل أصل القصد ، ويفى لأكثر القراء بالغرض ، ويبعث همم الطلاب إلى التوسع فى هذا العلم ، ويبعث رغباتهم إلى الازدياد منه .

رضى الله عنهم أجمعين

عبد الحميد بن باديس



رجَال السَلفْ



أبوذر الغفارى

رضى الله عنه

كيف كان إسلامه ؟ :

هو من السابقين الأولين ، وقصة إسلامه كما فى صحيح البخارى — مع الشرح — فى مواضع هكذا :

« بلغ أبا ذر مبعث النبى صلى الله عليه وسلم،فقال لأخيه أنيس : إركب إلى هذا الوادى — يعنى مكة — فاعلم لى علم هذا الرجل[1]، الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء . فانطلق أنيس حتى قدم مكة، وسمع من قول النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى أبى ذر فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وسمعت منه كلاما ما هو بالشعر .

فقال أبو ذر : ما شفيتنى مما أردت .

فتزود وحمل شنة[2] من ماء، وجرابا من طعام ، وعصا ، وسار حتى قدم مكة ، فأتى المسجد فالتمس النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه .

حتى إذا أدركه بعض الليل فاضطجع ، فرآه على بن أبى طالب

(١) علم : أى خبر .
(٢) شنة : القدر القديمة .

فعرف أنه غريب . فقال له : كأن الرجل غريب ، قال : نعم. فقال له على : فانطلق معى إلى المنزل، فانطلق معه لا يسأل أحدهما صاحبه عن شىء ، فبات عنده ، فلما أصبح عاد إلى المسجد فقضى اليوم الثانى كالأول ، ورآه على واستصحبه إلى منزله ، فلما أصبح عاد إلى المسجد ومضى عليه اليوم الثالث كالأول، ورآه على واستصحبه إلى منزله ، فلما أصبح عاد إلى المسجد ومضى عليه اليوم كسابقيه ، واستصحبه على معه كالسابق . . وسأله :

ألا تحدثنى ما الذى أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتنى عهدا وميثاقا لترشدننى فعلت .

فأعطاه على العهد والميثاق ، فأخبره بالذى أقدمه .

قال على : فإنه حق . وهو رسول الله (ص) فإذا أصبحت فاتبعنى ، فإنى إن رأيت شيئا أخاف منه عليك ، قمت كأنى أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى .

فانطلق أبو ذر يقفو(١) أثر على ، حتى دخل على على النبى (ص) فدخل أبو ذر فسمع من قوله (ص) ، وأسلم مكانه (٢) .

فقال النبى (ص) : اكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم ، فإذا بلغك ظهورنا ، فأقبل .

---

(١) يقفو : يتبع . (٢) «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام»

فقال أبو ذر :

والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ! ! فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فقامت إليه قريش . فضربوه ضرب الموت حتى أضجعوه على الأرض ، وأتى العباس فأكب عليه ، وقال لقريش : ويلكم ، ألستم تعلمون أنه من غفار ؟ ! وإن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم ؟ ! فأنقذه منهم .

ثم عاد أبو ذر من الغد إلى مثلها ، فثاروا عليه وضربوه ، فأكب عليه العباس ، وأنقذه منهم كالأول ، فرجع أبو ذر إلى قومه .

شىء من الشرح والاستنباط :

كانت المرحلة الأولى من مراحل الدعوة فردية سرية ، وما أعلنت الدعوة للعموم إلا بعد نزول قوله تعالى : «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمر » ، وكان ذلك فى السنة الثالثة ، ولكنها مع خفيتها كان الخبر يتسرب خارج مكة ، حتى بلغ أبا ذر فأرسل أخاه ، ولم يكفه الخبر عن العيان : فقدم بنفسه ، وأبى أن يسأل عن النبى (ص) أحداً من قريش ، لأنهم كانوا يصدون الناس عنه بالكذب عليه ، والتزهيد فيه ، وبالإذاية لمن يرون منه تصديقه ، وكان من صنع الله له — ومن تاقت نفسه لمعرفة الحق أعين عليه — أن ساق إليه عليا.. فاستضافه على عادة العرب فى استضافة الغريب[1] ، فكان على دليله إلى النبى (ص) ، وحارسه

(١) ثلاثة أيام دون سؤال عن اسمه أو مقصده .

فى طريق الوصول إليه ، من أن تصيبه قريش بأذى ، كما كان أبو ذر متستراً خوفا على نفسه .

فلما دخل على النبى (ص) ، وشاهد وسمع منه ما حصل له به اليقين أنه رسول الله .. بادر بالإسلام ، وأمره النبى (ص) بكتمان أمره حتى لا تؤذيه قريش ، وبالرجوع إلى قومه ليخبرهم لعلهم يهتدون .

وفى هذا :

١ — دليل على أن من كان فى مثل تلك الحال من خوف ، وعدم القدرة على العدو ، يجوز له أن يتكتم .

٢ — ودليل على أن من هداه الله . . كان حقا عليه أن يسعى فى هداية قومه .

لكن أبا ذر ، الذى كان متكتما خائفا من يوم قدومه إلى مكة إلى ساعة إسلامه ، أبى بعد إسلامه أن يبقى متكتما .. وأصبح لا يخاف قريشاً ، ولا يبالى بما يلحقه منها من أذى ، وأقسم أن يعلن إسلامه وسط مجامع قريش ، وأقره النبى (ص) على ذلك .

٣ — وفيه دليل على أن من أراد أن يتحمل الأذى ، ويعرض نفسه للهلاك فى سبيل إعلان كلمة الحق ، وإظهار قوة الإيمان ، وإدخال الرعب والغيظ على قلب العدو ، كان ذلك حسناً من فعله ! !

وبر أبوذر فى قسمه: فقصد إلى المسجد،حيث نوادى قريش ومجتمع الملأ منهم ، وصاح بكلمتى الشهادة : « صِبْغةَ الله ومن أحسنُ من الله صِبغة »

فى لحظة تبدل أبو ذر من الخائف المتكتم — إلى المعلن الذى لا يبالى بالموت . ولقد كادت قريش تقتله لولا أن أنقذه منها العباس ؛ بما خوفها به على أموالها من قبيلة غفار .

ولكن أبا ذر القوى الإيمان ، الصادق الإسلام .. أراد أن يعود إلى إرغامهم وإغاظتهم بعد ما ذاق وتحقق من إذايتهم ، ليعلمهم أنه أقدم على ما كان أقدم عليه عالما بإذايتهم ، غير مبال بها،فعاد إلى الإعلان ، وعادوا إلى ضربه ، وعاد العباس إلى إنقاذه .

فرجع بعدئذ إلى قومه — وقد استنار قلبه بالإيمان ، واشتفى من قريش — خيرقافل[1] بخيرهدية ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأسلم على يده أخوه، وأمه ، وكثير من قومه .

علمه :

العلم ثمرة النظر الصحيح ، والفهم الثاقب ، ودوام التحصيل.

---

(١) القفول : الرجوع من السفر .

وقد كان حظ أبي ذر موفورا من هذه كلها : ففى الجاهلية قبل أن يلقى النبي —صلى الله عليه وسلم —صلى لله ، وتوجه إليه وحده :

روى مسلم فى صحيحه(١) عن عبدالله بن الصامت عند قوله : «.. وقد صليت يا ابن أخى قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — ثلاث سنين . قلت : لمن ؟ قال : لله . قلت : فأين تَوَجَّهُ ؟ قال : أتوجه حيث يوجهنى ربى : أصلى عشاء ، حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأنى خِفَاء (٢) حتى تعلونى الشمس » .

فالنظر الصحيح والفهم الثاقب .. هما أدياه —بإذن الله— إلى هذا الإيمان، والتوحيد والعبادة فى تلك الجاهلية الجهلاء ، وساقاه إلى البحث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وسرعة الإيمان به فى السابقين الأولين .

أما مداومته للتحصيل : فإنه صحب النبى — صلى الله عليه وسلم — من يوم قدم المدينة ، وكان قدومه بعد الخندق إلى وفاته صلى الله عليه وسلم . فكان يوازى ابن مسعود فى العلم(٣) .

---

(١) كتاب الفضائل .

(٢) ألقيت : انطرحت من التعب — والخفاء : هو الغطاء أو الثوب الخفيف كناية عن الهزال والضعف . وشدة الإعياء.

(٣) الإصابة عن سير أبى داوود .

وقال فيه على بن أبى طالب — رضى الله عنه وكرم الله وجهه — « أبو ذر وعاء مُلىء علما ثم أُوكِئَ[١] عليه » .

كان أبو ذر يأخذ نفسه بأعلى درجات الزهد والتقلل من الدنيا ، ويريد حمل الناس على ذلك بشدة فى الحق وصراحة فيه ، فلم يستطع الناس ذلك وما كانوا ليستطيعوه . فكانوا يبتعدون منه ، وكان هو يحب الانفراد عنهم ، فلم يتأت نشر علمه فيهم ، وهذا هو الذى عناه على (رض) بقوله : «ثم أوكئ عليه» .

زهده وورعه :

خرج من الدنيا ولم ينشب[٢] منها بشىء . وكان يتحرى عيشة النبى بعد ذلك سمع معاوية (رض) وغيره فى مسألة المال كما سيأتى إن شاء الله ، مما لم يراع فيه خليفة ولا أميرا من الصحابة ، رضى الله عن جميعهم ، ورزقنا الاقتداء بهم.

تربيته :

تثبت الصحبة بمطلق الاجتماع بالنبى صلى الله عليه وسلم ، مع الإيمان به ، والموت على ذلك .

(١) أوكىء : ربط فم الوعاء بالوكاء وهو الرباط

(٢) ولم ينشب : أى لم يتعلق بشىء من حطام الدنيا الفانى .

ولكن خواص أصحابه هم الذين لازموه ، وتفقهوا عليه ، وتربوا تحت رعايته ، وهؤلاء هم الذين ثبتوا على الإسلام لما ارتدت العرب بعد موته ، وثبت الله بهم الإسلام ، وكان ذلك — بإذن الله — من آثار الفقه فى الدين والتربية النبوية .

كان أبو ذر ممن لازموا النبى (ص) ، وتفقهوا عليه وتربوا ، وظهرت آثار تلك التربية فى حياته بعد النبى (صلى الله عليه وسلم) .

كان النبى (ص) ، يعرف أخلاق أصحابه ونفسياتهم ، ومقدار استعدادهم ، فكان يعالج كل قسم بعلاجه ، ويوجهه فى الحياة حسب استعداده ، وقد تختلف أجوبته فى بيان المُقَدَّم من أشياء بحسب حال السائل وحاجته ، وقد يحذر أحدا من شىء ويقدم غيره إليه حسب قدرة هذا عليه ، وضعف ذاك عنه .

وفى تربيته لأبى ذر مما سنذكره ما يبين ذلك :

كان فى أبى ذر شدة ، وكان لا يتسع صدره لما يرى مما يكره ، فكان يحب الوحدة والانفراد[١] .

وأول ما كان من شدته فى أول أمره . أنه سابّ رجلا من الموالى — ذكر بعضهم أنه بلال — فعيره بأمه ، وقال له : يا ابن السوداء . فقال له

(١) محبته للوحدة قالها ابن عباس . الطبرى ج ٥ ص ٦٧ .

النبى (ص) ، « يا أبا ذر : أعيرته بأمه ؟! إنك امرؤ فيك جاهلية »[١] .

فأنكر عليه تعييره بأمه ، وبين له أن فيه خلقا من أخلاق الجاهلية ، وهو التعظم بالأنساب .

ثم بين له أدب الإسلام : دين الأخوة والعدل والإحسان ، الذى لا يفرق بين الأجناس ، ولا يفضل أحدا على أحد إلا بتقوى الله ، فقال (ص) له[٢]: « إخوانكم خَوَلُكم[٣] جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

فتربى أبو ذر بهذه التربية النبوية ، فلم تبق له شدة إلا فى الحق، وكان يعامل مملوكه بما ندبه به النبى (ص) : فكان يلبسه مثل لباسه، فلقيه المعرُورُ بالرَّبْذة وعليه حلة — وعلى غلامه حلة فسأله عن ذلك — إذ العادة جارية بأن لباس الغلام دون لباس مولاه — فأجابه أبو ذر بالحديث المتقدم، ليبين له أنه عامل بالوصاية النبوية .

---

(١) البخارى ومسلم .

(٢) بقية الحديث المتقدم .

(٣) خولكم : خدمكم

لماذا لم يستعمل النبي أبا ذر ؟

كان أبو ذر شديدا فى الحق،وكان من مقتضى شدته:ألا يتسع صدره لما يرى مما يكره ، فكان بهذا . . لا يستطيع معاشرة الناس ولا معاملتهم، إذ لابد أن يكون فى الناس ما لا يرضيه منهم ، فهو لهذا يحب الانفراد عنهم، وهو لهذا وذاك ضعيف عن القيام بالحكم بين الناس،وعن الولاية على المال، والرعاية للأيتام . فلما قال للنبى (ص): ألا تستعملنى؟ قال النبى (ص) : «يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى و ندامة، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها[1] » .

فحذر من الإمارة ، وبين له أنه ضعيف عنها ، فإن صدره لا يتسع لما يرى من الخصوم و لَددَهم [2] وتغالبهم بالحق وبالباطل . وقال له النبى (ص) مرة أخرى : « يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تَأمّرنّ على اثنين ، ولا تولّيَنّ مال يَتيم » .

فنهاه عن أقل الإمارة على اثنين ، وزاد فنهاه عن ولاية مال اليتيم ؛ إذ ولاية المال تقتضى حفظه وتثميره ، وذلك يجر إلى المعاملة والخلطة ، وهو ضعيف بخلقه عنهما .

وعنَى (ص) بقوله : «إنى أحب لك ما أحب لنفسى» . ما يحبه لنفسه من جلب النفع ودفع الضر ، لا عين ما نهاه عنه بسبب ضعفه .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) اللدد : شدة الخصومة .

هكذا تربى أبو ذر ، وبهذه التربية النبوية المراعى فيها طبعه وحاله ، فكان بعيدا عن الإمارة وما إليها ، زاهدا فى الدنيا زهد أبعد عن جميع أسبابها وأبنائها ، حتى لقى الله ، رحمه الله .

مذهبه فى المال :

أوجب الله الزكاة وجوبا عينيا ، على من وجدت لديه أسبابها ، وتوفرت فيه شروطها ، فهى الحق الثابت فى الأموال المقدر المعلوم .

وفى المال حقوق أخرى للقيام بالمصالح العامة : كفك الأسير ، وتجهيز الميت وغير ذلك ، فإذا لم يتول ذلك بعض الناس ليسقط الطلب عن جميعهم — تعين عليهم كلهم أن يعطوا كلا بحسب ما عنده ، لتحصيل ذلك الواجب على جماعتهم .

فهذا الحق الثابت فى المال ليس مقدرا ، لأنه يختلف باختلاف الأحوال .

وقد كان معلوما بنقل التواتر وإجماع أئمة الأمصار : أن النبى (ص) إنما كان يأخذ جزءا من المال ويترك الباقى لصاحبه ، وقد صح عنه قوله (ص) : « ليس فيما دون خمس أواق صدقة » : أى زكاة .

لكن أبا ذر ، كان يرى أنه لا يجوز ادخار الذهب والفضة بعد أداء زكاتهما(١) .

---

(١) انظر أحكام الجصاص فى تفسير الآية

ويحتج على ذلك بظاهر قوله تعالى : « والذين يَكْنِزون الذهَبَ والفِضَّةَ ولاَ يُنفِقُونَها فى سَبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أليمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْها فى نارِ جهنم فَتُكْوَى بِها جِبَاهُهُم وجُنُوبُهم وظُهُورُهم ، هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ » .

وبقوله (ص) له : « ما يسُرُّنِى أنْ لِيَ أُحُدًا ذَهَبًا تَأْتِى عَلَيَّ ثالِثَةٌ (أى ليلة) وَعِنْدِى مِنْهُ دِينَارٌ إلا دِينَارٌ أَرْصِدُه لِدَيْنٍ عَلَيَّ[1] » .

وبأحاديث أخرى فى معنى بهذا .

جواب الأئمة عن استدلاله :

لما جاءت النصوص الصحيحة الصريحة ، بأن الأخذ إنما يكون لبعض الأموال وجب رد الآية المحتملة إليها : فقوله تعالى : «ولا ينفقونها» معناه : ولا ينفقونها كلها . وهؤلاء هم الذين لم يعطوا شيئا منها ، وهم مانعو الزكاة ، فلا تصدق الآية عل الذين أنفقوا ، بعضها وهم المزكون .

وأما الأحاديث : فهى محمولة على الترغيب فى البذل ، وهى حالة فضل لا تجب على الناس ، ولو وجبت عليهم لما استطاعوا ، والواجب هو الذى يعم . وأما الفضل : فإن الناس يرغبون فيه ، ويأتى كل منهم بما استطاع ، وهم فى ذلك متفاوتون ، وقد قبل النبى (ص) من أبى بكر (رض) التصدق بجميع

---

(١) مسلم .

ماله ، وردعلى من أراد التصدق بمقدار بيضة من ذهب ـ هى كل ما يملك ـ صدقته بجميع ما يملك ، ونهى عن ذلك[١] .

فأصاب أبو ذر فيما اختاره لنفسه من الزهد وعدم الادخار، ولكنه أخطأ فيما أراد من حمل الناس على حالة فضل لم يوجبها الله عليهم ، ولن يستطيعوها.

إعلانه رأيه و إثارته الفقراء :

كان أبو ذر يعلن برأيه فى مجامع الناس بالشام ، ويندد بالأغنياء غير مكتف منهم بإخراج الزكاة ويقول :

«يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاوٍ من نار ، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم[٢] » . فما زال حتى وُلِعَ الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء لمعاوية — وهو أمير الشام من طرف عثمان (رض) — ما يلقونه من الناس » .

ولو لم يبادر عثمان باستقدام أبى ذر إلى المدينة لانسع نطاق الفتنة بالشام .

---

(١) سنن أبى داود فى كتاب الزكاة

(٢) الطبرى ج ٥ ص٦٦

حرية النظر :

وقد خالف أبو ذر إجماع الصحابة بنظريته السابقة مع قيام الدليل القطعى من النقل المتواتر ، والنصوص القرآنية الكثيرة المتضافرة على خلاف رأيه .

وكان خلافه هذا فى مسألة من كبريات المسائل ، ومع ذلك تركوا له حرية النظر ، ولم يلق منهم من أجلها أدنى ضغط ، ولا أقل تحقير ، فكانوا بذلك منفذين لما جاء به الإسلام من احترام الآراء ، وحرية النظر والتفكير .

النتيجة :

فأبو ذر بمذهبه هذا أول اشتراكى فى المال كان شاذا بين الصحابة (رض) مخالفا لإجماعهم . ولم يتعرضوا له فى نظره واجتهاده إلا عندما خشوا من بثه الفتنة على الناس .

وقد كان أبو ذر بمذهبه الشاذ هذا ، أول اشتراكى فى المال من المسلمين فى أول عصور الإسلام ، وإن لم يعمل بمذهبه فى سائر عصوره .

استقدام عثمان له من الشام :

كان أبو ذر بالشام ، وكان معاوية أميراً بها لعثمان ، وكان أبو ذر يتكلم

فى الجامع ينكر على معاوية أن يقول: مال الله(١) . يتهمه بأنه يريد أن يمحو عنه اسم المسلمين ، لحجبه دونهم ، ويندد بالأغنياء أن يقتنوا الأموال ، وحدثت بسبب ذلك فتنة من الفقراء على الأغنياء .

وأعضل الأمر على معاوية، فكتب إلى عثمان يخبره بالحال ، ويشكو إليه أبا ذر .

فكتب إليه عثمان أن ابعث أبا ذر ، ووصاه بتزويده ، والرفق به

فلما دخل على عثمان قال له : يا أباذر ، ما لأهل الشام يشكون ذَرَبك(٢) فصارحه بما كان ينكره عليهم وعلى معاوية .

فقال له عثمان : « يا أبا ذر على أن أقضى ما علىّ ، وآخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد » .

فقه عثمان :

فى أسفار التاريخ كلمات كبيرة كثيرة لرجال سلفنا : من الخلفاء والأمراء والقُوّاد تدل على عظيم فقه فى الدين ، وكبير علم بسياسة الأمة وتدبير شؤونها مما يجمع بين تفقيه فى الدين ، وتعليم للحكم والتدبير .

---

(١) وإنما يريده أن يقول : مال المسلمين .

(٢) ذربك : حدة لسانك .

منها كلمة عثمان هذه لأبي ذر . فقد بينت ما على الأمير فى نفسه ، وما عليه فى رعيته ، وأنه لايجوز حمل الرعية وجبرها على ما لم توضع عليه الفطرة العامة فى البشر من الكمالات الإنسانية : كعدم التوسع فى اقتناء المباحات من الأموال .

وأنه إنما على قادة الأمة أن يدعوها إلى تلك الكمالات ، ويرغبوها فيها فيرغبوها فى الاجتهاد فى العمل ، والاقتصاد فى الاقتناء للأموال — فى مسألة أبى ذر — فبذلك يتربى الناس على العمل والاجتهاد ، فلا يمدون أعينهم لما فى أيدى الناس ، ويتربون على البذل والسخاء فيما يحصلون من ثمرات كدهم ، فيجمعون بين العمل والغنى والسخاء .

والأمة التى تبنى حياتها على هذه الأصول . . هى الأمة التى تترقى بجميع طبقاتها فى مادياتها وروحياتها .

فكلام هذا الإمام العظيم المأخوذ من أصول الإسلام . . قانون عظيم فى سياسة الأمم وتربيتها ، ومثل من يفقه هـذا الفقه هو الذى يصلح لولاية أمر العامة .

وأبو ذر ، وإن كان فقيها فى الدين — فإنه بطبعه الانفرادى ، ونفرته من الناس ، لم يكن ليفكر فى هذا ، ولاليتفطن له ، ولذا لم يكن صالحا لشىء من الإمارة . وقد قدمنا نصح النبى (ص) له ألا يتأمر على اثنين .

فسبحان من قسم الأخلاق والأرزاق ، والعلوم والفهوم ، ثم أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونوجه كلا لما هو أهل له ، وله مقدرة عليه .

فقهنا الله فى ديننا ، وعرفنا بأقدارنا ، واستعملنا فيما نبلغ فيه إلى رضاه .

خروجه إلى الرَبذَة[1] :

أدرك أبو ذر بعد قدومه على عثمان : أنه لا يستطيع مخالطة الناس ، فاستأذن عثمان فى الخروج إلى الربذة .. فأذن له .

أو أن عثمان قال له : « لو اعتزلت ؟ » عرض عليه ما رآه أصلح له ، فاختار الربذة ، وعلى كلتا الروايتين . لم يأمره عثمان بالخروج، حتى يقال فيه : إنه قد نفاه ، كما يقوله المتجنون على عثمان (ض) .

خرج أبو ذر إلى الربذة ، فخط بها مسجدا[2] وأقطعه عثمان صِرمة[3] من الإبل ، وأعطاه مملوكين ، وأرسل إليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابيا . وقد نهوا عن التعرب بعد الهجرة ، لما فى التبدى من الانقطاع عن الجماعة ، ومشاهد العلم والدين من الجفوة[4] .

---

(١) الربذة : مكان قريب من المدينة .

(٢) كصنيع النبى (ص) فى المدينة أول ما نزل بها .

(٣) الصرمة بالكسر : القطعة من الإبل إذا كانت خفيفة .

(٤) تعاهد : تردد عليها ، وفى الحديث . « من بدا جفا » أى من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب .

تحذير :

قد ابتلى عثمان بأنواع من البلايا ، منها ما ينقمه عليه قومه بالباطل ، فمن ذلك :نقمتهم عليه نفيه أبا ذر ، وقد رأيت فيما ذكرنا أنه لم ينفه .

ثم هبه نفاه بالنظر المصلحى كان ماذا ؟

فقد روى أن عمر (رض) ، سجن ابن مسعود فى نفر من الصحابة سنة بالمدينة ، حتى استشهد ، فأطلقهم عثمان ، وكان سجنهم لأن القوم أكثروا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١]

وهذا ابن مسعود (رض) نقم على عثمان أنه لم يدخله فى كتابة المصحف، وقدّم زيدبن ثابت (رض) ، مع أن عثمان كان مقتدياً بأبى بكر (رض)،وقد قدم زيد بن ثابت لجمع المصحف دون ابن مسعود ، ولم يقل يوم ذلك ابن مسعود (رض) عنه شيئاً ، وقد راجع ابن مسعود الحق ، وقبل ما صنعه عثمان .

فعلى الناظر فى تاريخ عثمان (رض) : أن يتثبت ويتحرى ، حتى لا يقع فى ظلم وباطل فى حق هذا الإمام الشهيد العظيم .

---

(١) العواصم ج ٢ ص ١٠٩

وفاته :

توفى بالربذة ، فى ذى الحجة من السنة الثامنة من خلافة عثمان ، وحضر دفنه ابن مسعود فى ركب كانوا قافلين من الحج، وضم عياله عثمان إلى عياله .

وطويت بوفاته صفحة من حياة زكية فاضلة، شاذة فى عصر الخير والفضل بين فضلاء أخيار ، من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم — بتشدد فى الزهد ، ونظرية فى المال ما كرهوا له منهما إلا ما أراده من تعميمها فى الناس . فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة ، التى كانت تمثل الكمالات الإنسانية بأنواعها ، وتتفاوت فى بلوغ الغايات منها ؛ لتكون قدوة لمن يجىء بعدها كل بما فيه من استعداد لما خلق له ، من أنواع الكمال .

فجزاهم الله عنا خير الجزاء ، ورزقنا الاقتداء بهم ، ولزوم جماعتهم ، حتى نلقاه — جل جلاله — غير مبدلين ولا مغيرين[١] .

---

(١) إلى هنا انتهى كلام الإمام عن هذه الشخصية الإسلامية العظيمة .

تتمـــة

سبق أن جاء فى الحديث عن أبى ذر ، ومنزلته العلمية قولة الامام على رضى الله عنهما : « أبو ذر وعاء ملىء علماً ، ثم أوكىء عليه » . ونورد هنا حديثاً يبين ما يدل على دالة أبى ذر على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى حبه للعلم والاستزادة منه واهتبال الفرصة فى سبيل ذلك ، حتى يكون هذا دافعاً وحافزاً لنا على طلب العلم صباح مساء :

كان أبو ذر رضى الله عنه للرسول صلى الله عليه وسلم ملازماً وجليسا ، وعلى ملازمته والاقتباس منه حريصا ، وللقيام على ما استفاد منه أنيساً سأله عن الأصول والفروع ، وسأله عن الإيمان والإحسان ، وسأله عن رؤية الله تعالى ، وسأله عن أحب الكلام إلى الله تعالى ، وسأله عن ليلة القدر أترفع مع الأنبياء أم تبقى؟ وسأله عن كل شىء حتى مس الحصا فى الصلاة :

فعن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبى ذر قال : سألت رسول الله عليه وسلم عن كل شىء حتى سألته عن مس الحصا فقال : « مسه مرة أو دع » .

وعن أبى ذر قال : دخلت المسجد فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . جالساً وحده ، قلت : أنظر إليه وهو لا يرانى ، وأقول : ما خلا هكذا وحده إلا وهو على حاجة ، أو على وحى ، فجعلت أؤامر

نفسى أن آتيه ، فأبت نفسى إلا أن آتيه ، فجئت فسلمت ثم جلست ، فجلست طويلا لا يلتفت إلىّ ولا يكلمنى .

قال : قلت قد كره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجالستى .

ثم التفت إلىّ فقال : «يا أبا ذر. فقلت : لبيك وسعديك قال: يا أبا ذر إن للمسجد تحيـة ، وإن تحيتـه ركعتان فقم فاركعهما » . قال : فقمت فركعتهما . ثم عدت فجلست إليه، فقلت: يارسول الله ، إنك أمرتنى بالصلاة فما الصلاة ؟

قال : « خير موضوع استكثر أو استقل » .

قلت : يا رسول الله ، فأى الأعمال أفضل ؟

قال : « إيمـان بالله عز وجل ، وجهاد فى سبيله » .

قال قلت : يا رسول الله ، فأى المؤمنين أكملهم إيمانا ؟

قال : « أحسنهم خلقاً » .

قال قلت : يارسول الله ، فأى المؤمنين أسلم ؟

قال : « من سلم الناس من لسانه ويده » .

قال قلت : يارسول الله فأى الهجرة أفضل ؟

قال : « من هجر السيئات » .

قال قلت : يارسول الله ، فأى الصلاة أفضل ؟

قال : « طول القنوت » .

قال قلت : يارسول الله ، فما الصيام ؟

قال : « قرض مجزى ، وعند الله أضعاف كثيرة » .

قال : قلت يا رسول الله ، فأى الجهاد أفضل ؟

قال : « من عقر جواده وأهريق دمه » .

قال : قلت يا رسول الله ، فأى الرقاب أفضل ؟

قال : « أغلاها ثمنا ، وأنفسها عند ربها » .

قال : قلت يارسول الله فأى الصدقة أفضل ؟

قال : « جهد من مقل يسر إلى فقير » .

قلت : يا رسول الله ، فأى آية مما أنزل الله عز وجل عليك أعظم ؟

قال : « آية الكرسى » . ثم قال : « يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسى إلا حلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة » .

قلت : يا رسول الله كم عدد الأنبياء ؟

قال : « مائة ألف ، وأربعة وعشرون ألفا » .

قلت : يا رسول الله ، كم عدد الرسل ؟

قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيراً » — قلت : كثير طيب .

قلت : يا رسول الله من كان أولهم ؟

قال : « آدم » .

قلت : يا رسول الله ، أنبي مرسل ؟

قال : « نعم : خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، ثم سواه قبلا » .

ثم قال : « يا أبا ذر ، أربعة سريانون : آدم وشعيب ، وخنوخ — وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم — ونوح .

وأربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر » .

قال : قلت يا رسول الله ، كم كتابا أنزله الله تعالى ؟

قال : « مائة كتاب وأربعة كتب . أنزل على شيث خمسون صحيفة وأنزل على خنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل عل موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » .

قال : قلت يا رسول الله ، فما كانت صحف إبراهيم ؟

قال : « كانت أمثالا كلها ، أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، فإنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها ولو كانت من كافر .

وكان فيها أمثال : على العاقل — ما لم يكن مغلوبا على عقله — أن تكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عز وجل،وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

قال : قلت يا رسول الله فما صحف موسى عليه السلام ؟

قال : « كانت عبرا كلها ، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار وهو يضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها . عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل » .

قلت : يا رسول الله ، أوصنى .

قال : « أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس الأمر كله » .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : عليك بتلاوة القرآن ؛ فإنه نور لك فى الأرض ، وذكر لك فى السماء » .

قلت : يا رسول الله زدنى .

قال : « إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه ».

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : « عليك بالصمت إلا من خير ، فإنه مطردة للشيطان عنك ، وعون لك على أمر دينك » .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : « عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية أمتى » .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : « حب المساكين وجالسهم » .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : « انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ، فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عندك» .

قلت : زدنى يا رسول الله .

قال : « صل قرابتك وإن قطعوك » .

قلت : يا رسول الله زدنى .

قال : « لا تخف فى الله لومة لائم » .

قلت : يا رسول الله زدنى ،

قال : « قل الحق ولو كان مرا » .

قلت : يا رسول الله زدنى .

قال : « يردك عن الناس ماتعرف من نفسك ولاتجد عليهم فيما تأتى ، وكفى به عيبا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى » :

ثم ضرب بيده على صدرى فقال : « يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ، ولاورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق » اهـ .

سيدنا بلال الحبشي

رضى الله عنه

نسبه :

هو بلال بن رباح ، مُوَلَّدٌ بمكة ، وأصله من الحبشة ، وأمه حمامة من السابقات ، كانت تعذب فى الله مثله[١] .

إسلامه :

لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – إلى الإسلام : أجابه ضعفاء الناس ، سنة الله فى إخوانه الأنبياء صلوات الله عليهم من قبله .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « كان أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأبو بكر ، وعمّار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد.

فأما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فمنعه الله بعمه أبى طالب ، وأما أبو بكر : فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد ، وصهروهم فى الشمس .

---

(١) الإصابة لابن حجر .

فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا ، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه فى الله ، وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة ، وهو يقول : أحد أحد[١] » .

وليس فى هؤلاء المستجيبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم من نفس قريش إلا أبو بكر ، وبقيتهم بين مولى وحليف ، وقد كان بلال أسبق هؤلاء بعد أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه .

تعذيبه فى الله وصبره :

عدت قريش على المستضعفين تعذبهم وتفتنهم ، لتصرفهم عن الإسلام: فكان أمية بن خلف الجُمَحى . يخرج بلالا إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم هو يقول له : لاتزال كذلك حتى تموت، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيصبر بلال على ذلك العذاب ، ويقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد ويأبى أن يقول كلمة الكفر بلسانه ، وقد علم أنه لا إثم على من يقولها بلسانه ، إذا أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ويأبى أن يترخص كما ترخص إخوانه المستضعفون ، وأن يرائى ويوافق كفار قريش ، ولو بكلمة واحدة .

---

(١) سنن ابن ماجه بسند موثق .

ترجيح واقتداء :

الحالة التي كان فيها بلال من الصبر والثبات والإباية من شيء من الترخص — أرجح من حالة الترخص ، وإن كانت هذه سائغة جائزة ، إذ في الحالة الأولى إقامة التوحيد ، وإرغام المشركين ، وتثبيت للدعوة ، وجلب إليها ، وتقوية لقلوب المستجيبين لها، وضرب المثل لكل من أصيب وعذب في الحق .

ولو أن جميع المبتلين ترخصوا لخفتت كلمة التوحيد ، وطفت كلمة الشرك، وازداد ظلم أهلها ، ولتزلزلت الدعوة ، واضطربت قلوب ضعفاء الإيمان ، وأعرض عنها كل من لم يكن قد استجاب . ولاشك أن حالة الصبر وعدم الترخيص هي حالة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وحالة الكبراء من أصحابهم حتى قتل منهم من قتل ، وعذب منهم من عذب ، كما قص أخبارهم القرآن العظيم !

عتقه :

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه داعية الإسلام من يوم أسلم ، وكان بلال ممن استجاب له ، فلما رأى ما حل به من عذاب : اشتراه فأعتقه فكان سبباً في عتقه من الرق ، وعتقه من العذاب ، وعتقه من الكفر .

كما اشترى أمه « حمامة » وأعتقها في آخرين من العبيد الذين عذبوا في الله .

فياله من عتيق معتق رضى الله عنه ! !

جهـاده :

شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها ، وبعد وفاة أبى بكر (رض) خرج إلى الشام مجاهدا حتى مات بها مرابطا .

والتقى فى غزوة بدر بأمية بن خلف ، وقـد أسره عبد الرحمن بن عوف قبل أن يجمع الأسرى فقتله ، فمكنه الله من عدوه الذى كان يعذبه ذلك العذاب حتى قتله بيده .

وظيفته :

كان أول من أذن فى الإسلام ، واستمر يؤذن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحياة أبى بكر — على إحدى الروايتين — وأذن مرة بالشام لما قدمها عمر فبكى وأبكى : ذكر الناس بأذانه عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

جزاء الحكيم :

كان بلال — وهو يقاسى العذاب الشديد — يلهج باسمه تعالى : « أحد » فيخفف ما يلقاه من ألم التنكيل بلذة التوحيد ، فكان من جزاء الله الحكيم له أن جعله مؤذن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأول من رفع عقيرته بكلمة التوحيد فى الأذان .

عرف الله فى الشدة،فعرفه الله فى الرخاء،لم يترك اسم « أحد » فى أصعب أوقات حياته ، فألزمه الله التعبد بالجهر به على الناس معظم حياته . فكان الجزاء من جنس العمل من الحكيم العليم.

ثناء عمر عليه :

كان عمر بن الخطاب (رض) يقول : « أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا »[1] يعنى بلالا ، فقرنه بأبى بكر فى سيادتهم اعترافا له بما كان من سبقه للإسلام،وصبره على البلاء فيه ، وما كان عليه فى دينه وفضله ومكانته عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد كان عمر (رض) شديد التعظيم للسابقين الأولين ، والتقديم لهم ، وخصوصا أهل المنازل الخاصة عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى قال لابنه عبدالله بن عمر — لما رجح عليه أسامة بن زيد فى العطاء — : كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منك،وكان أبوه أحب إليه من أبيك .

هذا وإن كانت منزلة عمر (رض) معروفة فى الفضل ، لكنهم هذه أخلاقهم — رضى الله عنهم — ينسون أنفسهم عندما يتحدثون على فضل غيرهم ، حتى كأنهم لا يعرفون لأنفسهم فضلا .

---

(١) البخارى

تبشيره بالجنة :

«رأى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليلة أنه دخل الجنة وسمع خَشْفَ [١] نعلي بلال بين يديه في الجنة

فقال له : حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام منفعة ، فقال بلال : ما عملت عملا في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهورا تاما في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي [٢] . وكان لا يحدث إلا توضأ وصلى [٣] .

فكان يصل الحدث بالوضوء ، والوضوء بالصلاة ،فلا يكون إلا على طهارة،ولا تنفصل طهارته عن الصلاة،فهذه الطهارة الدائمة والصلاة الملازمة هي التي عدها أرجى أعماله في الإسلام عنده منفعة .

ذلك لأن هذه الطهارة الدائمة في الظاهر دليل الطهارة الدائمة في الباطن . وعلى طهارة الباطن تنبني جميع الأعمال،وقد عمل هو هذا العمل يرجو منفعته عند الله — كما هي وضعية الإسلام للطاعات كلها — فحقق الله رجاءه .

وكان ما رآه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من وجوده في الجنة بين يديه بشارة له ، بأنه من أهل الجنة ، وأنه بالمنزلة القريبة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) صوتهما عند تحركهما في المشي .

(٢) في الصحيحين .

(٣) في مسند أحمد .

وكما كان خادما للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يمشى بين يديه فى الدنيا — كذلك رآه فى الجنة تنبيها على أن كل خير ناله — مثل كل من ناله شيء من الخير — هو من اتباعه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والقيام بخدمته .

وفى هذا كله منقبة عظيمة له بجليل عمله ، وبشرى صادقة بعظيم ثوابه عند ربه ، رضى الله عنه .

سنه ووفاته :

مات بالشام فى طاعون عمواس سنة عشرين ، وقد ناهز السبعين ، ودفن بمقبرة دمشق ، وقيل بحلب ، فرحمه الله ، وجمعنا به فى دار النعيم آمين .

الحجاج بن علاط

رضى الله تعالى عنه

نسبه : الحجاج بن علاط (ككتاب) السلمى .

إسلامه ووفاته : أسلم عام خيبر ، وتوفى فى أول خلافة عمر (ض) .

مسكنه وإقامته : أقام بالمدينة ثم نزل الشام فسكن حمص .

حاله فى الجاهلية : كان تاجرا كثير المال ، وكان يستخرج الذهب من معادن بنى سليم .

حاله فى الإسلام :

هو أول من بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بصدقة من معدن بنى سليم ، فما دخل الإسلام قلبه حتى خرج منه ذلك الشح الذى يلازم فى الغالب أرباب الأموال ، فبادر بإرسال صدقة معدنه طائعا طيبة بها نفسه ، وهكذا يفعل الإيمان عندما تخالط بشاشته القلوب .

كتب عمر بن الخطاب (رض) : إلى أمراء الآفاق أن يبعثوا إليه من كل عمل رجلا من صالحيها ، فبعثوا إليه أربعة من البصرة والكوفة والشام ومصر. فاتفق أن الأربعة من بنى سليم ، وهم :

الحجاج بن علاط ، وزيد بن الأخنس ، ومجاشع بن مسعود، وأبو الأعور.
فكان الحجاج أحد هؤلاء الأربعة المشهود لهم من عموم أهل أقطارهم بالصلاح.

خداعه لقريش حتى نجا منهم بماله :

لما فتحت خيبر وكان هو قد أسلم خشى أن تسمع قريش بإسلامه ؛ فتستولى على ماله الذى كان متفرقا عند تجارها ، وغيرهم فاستأذن رسول الله (ص) .. أن يذهب إلى مكة ؛ كأنما إسلامه ليعمل على تخليص ماله ونجاته به من قريش، فأذن له النبى (ص)، ورأى أنه لا بد أن يحتاج فى خداع قريش إلى شىء من التقول ، بخلاف الواقع. فقال للنبى (ص) : وأنه لا بد لى — يارسول الله — من أن أقول . قال : « قل » :

فخرج حتى أتى قريشا فسألوه عن النبى (ص) وأصحابه ، فقال لهم : هزم شر هزيمة ، وقتل أصحابه شر قتل، وأخذ أسيرا ، وقال أهل خيبر : لا نقتله حتى نبعثه إلى أهل مكة ، فيقتلوه بما قتل من رجالهم . . فصدقته قريش .
فقال لهم : إنه يريد أن يعجل إلى خيبر قبل أن يسبقه التجار إليها فأعانوه على جمع ماله حتى نجا به ، وانطلت عليهم حيلته .

وكان قبل أن يفارق جاءه العباس يسأله عما جاء به من الخبر ؟ فأخبره بالحقيقة على وجهها ، واستكتمه حتى يمضى على خروجه من مكة ثلاثة أيام .

فلما مضت الثلاثة الأيام لبس العباس حلته ، وجاء فطاف بالكعبة ، فلما رأته قريش على تلك الحالة الطيبة، قالوا له : هذا والله التجلد على المصيبة :

يعنون ما جاءهم به الحجاج من الخبر عن النبي (ص)، فأخبرهم العباس بجلية الأمر، وأن النبي (ص) افتتح خيبر، وتزوج ببنت ملكهم، وأن الحجاج أخذ أموالهم ليلحق به، فاشتد عليهم ذلك، وبلغ منهم المبلغ العظيم من الأسف والحنق .

وحديث الحجاج هذا قال الإمام ابن عبد البر : « صحيح من رواية ثابت البناني وغيره عن أنس » ورواه من الأئمة أحمد وغيره .

الأسوة :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » .

أذن له النبي (ص) في التقول والإخبار بخلاف الواقع، والقول عنه (ص) ولا يجوز أن يقال عليه من الهزيمة والأسر ؛ لأن ذلك كله كان من خدع الحرب ، لأجل التوصل إلى افتكاك مال الحجاج منهم ، حتى لا يتقووا به ، وإدخال الغيظ عليهم ، وإحداث الوهن في قلوبهم .

فكان ذلك منه (ص) شرعا عاما ، وحكما باقيا في مثل تلك الحال مقدرا بذلك المقدار .

سعد بن الربيع

رضى الله عنه

نسبه :

أنصارى خزرجى شهد بيعة العقبة الأولى والثانية،وأحد النقباء الإثنى عشر ، وشهد بدراً ، واستشهد يوم أحد .

كرم أخوته ومراعاته لحقوقها :

لما قدم النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ المدينة آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار،لتقوية الرابطة العامة بالرابطة الخاصة : فآخى بين سعد ابن الربيع وعبد الرحمن بن عوف ، وكان سعد من أكثر الأنصار مالا ، وكان متزوجاً امرأتين،فرأى من حق هذه الأخوة بينه وبين أخيه المهاجرى أن يشاطره ما عنده . فقال لعبد الرحمن : « إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم لك نصف مالى ، وانظر أى زوجتى هويت نزلت لك عنها ، فإذا حلت تزوجتها» . فقال له عبد الرحمن : «بارك الله فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق[1] » .

فلم يكتف سعد بالنزول لأخيه عن شطر ماله حتى أراد النزول له عن إحدى زوجتيه ، لأنه يعلم أن الأخوة ليست وصفاً يكفى أن يثبت بالألسنة

(١) البخارى .

بل هى عقيدة لا تحققها إلا الأفعال وهذه هى حقيقة الأخوة خاصة كانت أو عامة . فالمسلم الذى يشعر بأخوة الإسلام شعورا صحيحا ، ويعتقدها اعتقادا صادقا — هو الذى يشاطر المسلمين فى سرائهم وضرائهم، ويشركهم معه فيما عنده من خير بقدر ما استطاع . فأما من لم يهتم بأمورهم ، وقبض يده عن مواساتهم، وشح بالفرض والمستحب من الصدقة عليهم — فهو كاذب فى أخوته جاهل بحقيقة الآخرة ، وقد قال الله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين » . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها » .

صدقه ما عاهد الله عليه :

كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص ، وكان هذا الصحابى من أبطال ذلك اليوم ، وممن أبلوا فيه البلاء الحسن ، وجاهد حتى سقط مطعونا باثنتى عشرة طعنة .

وتفقده رسول الله (ص) ولم يره فى الناس ، فقال : من يأتنى بخبر سعد بن الربيع . فقال رجل(١) : أنا . فجعل يطوف بين القتلى ، فقال له سعد بن الربيع ما شأنك ؟ فقال الرجل : بعثنى رسول الله لآتيه بخبرك ، قال : اذهب إليه فأقرئه منى السلام ، وأخبره أنى طعنت اثنتى عشرة طعنة ، وأنى أنفذت مقاتلى ، وأخبر قومك : أنهم لا عذر لهم

---

(١) هو أبى بن كعب .

عند الله إن قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وواحد منهم حي[1]» .

فالنبي (ص) لم ينسه ما هو فيه من مصاب عظيم فى ذلك اليوم ما عليه من تفقد أصحابه ! وهذا السيد الجليل لم ينسه ما فيه من ألم الجراح وحالة الاحتضار، من إبلاغه سلامه للنبي (ص)، ومن النصح لقومه بما عليهم من حفظ رسول الله (ص) إلى آخر واحد منهم ، وفاء بما عاهدوه عليه ليلة العقبة ! .

فالمسلم لا ينسيه ألم يصيبه فى سبيل الله ما بقي عليه من الواجبات لدينه ، ولا يترك النصح حتى فى أشد الأحوال ، ويبذل فى سبيل الوفاء على ماعاهد الله عليه نفسه راضيا مغتبطا .

هكذا كان الصحابة يبذلون فى حفظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرواحهم ، والتابعون لهم من المسلمين ، هم الذين يبذلون فى حفظ دينه من بعده كل عزيز . فحياته صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه ببقائه فيهم سالما ، وحياته صلى الله عليه وآله وسلم فى أمته ببقاء دينه فيهم قائما .

والحمد لله أنه لا تزال طائفة قائمة على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ، وهم ظاهرون .

---

(١) رواه الموطأ .

عبادة بن الصامت

رضى الله عنه

نسبه :

أنصارى خزرجى من السابقين الأولين ، بايع ليلة العقبة ، وعينه النبى صلى الله عليه وآله وسلم بها نقيبا ، شهد بدرا وجميع المشاهد بعدها[١] .

علمه :

ممن جمع القرآن فى عهد النبى (ص) ، وروى عن الرسول كثيرا ، فكان بما حفظ من كتاب الله ، وروى من حديث رسول الله (ص) فقيها فى دين الله — ولا والله ما فقه الإسلام من لم يفقه الكتاب والسنة ، وما كان فقه الصحابة والتابعين .وأئمة الدين إلا بالفقه . ولفقهه بعثه عمر (رض) ، ومعاذا وأبا الدرداء إلى أهل الشام يعلمونهم القرآن ويفقهونهم .

وهكذا كانوا يبعثون الفقهاء لتعليم الناس أمر دينهم وتفقيههم فيه ، وهو ما أخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على نفسها القيام به ، وهو الذى من

(١) وزوجته أم حرام بنت ملحان . وسيأتى ذكرها فى القسم الثانى : «نساء الإسلام» .

أجله قامت النواحى التى تستغل جهل المسلمين تقاومها — فأقام عبادة بحمص ، ثم بفلسطين ، وبها مات سنة أربع وثلاثين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة .

* * *

كان عبادة قويا فى دين الله لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، فكان له مع معاوية — وهو أمير على الشام — مواقف فى الإنكار عليه ، وكان معاوية يعترف له بالتقدم عليه بالفقه ، ثم تبرم منه ، فشكاه إلى عمر (رض) ، وارتحل إلى المدينة فرده عمر إلى الشام وقال له : قبح الله أرضا لست فيها وأمثالك وكتب إلى معاوية أن لا إمرة لك على عبادة ! !

صلابته فى الدين :

كان عبادة صلبا فى دينه : يوالى فى الله ، ويعادى فيه :

كان يهود بنى قينقاع حلفاءه فلما رأى عداوتهم للإسلام ، وتربصهم بأهله ، جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له : إن لى موالى من اليهود كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ، وأتولى الله ورسوله .

وكان لعبد الله بن أبى — رأس المنافقين — من الولاية فيهم مثل ما لعبادة ، فبقى على ولايتهم ، واعتذر من بقائه على ولائهم بأنه يخاف الدوائر وفيها نزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم

أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لايهدى القوم الظالمين .
فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم، يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة ،
فعسى الله أن يأتى بالفتح، أو أمر من عنده، فيصبحوا على ماأسروا فى أنفسهم
نادمين » .

اقرأمع هذه الآية قوله تعالى : «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين،
ولم يخرجوكم من دياركم . أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين .
إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا
على إخراجكم ، أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فكان عبادة بن الصامت : أول من سن سنة رفض ولاية مواليه ،
لما رأى منهم الشر ، وتولى الله ورسوله .

ومن سن سنة حسنة فى الإسلام كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى
يوم القيامة فرحمه الله ، رحمة الهادين المهتدين .

عكاشة بن محصن

رضى الله عنه

اسمه ونسبه:

العكاشة — بشد الكاف وتخفيفها — العنكبوت ، وبه سمى ، وهو ابن محصن من بنى أسد بن خزيمة حليف لبنى أمية .

سابقيته ومشاهده :

من السابقين الأولين . . شهد بدرا وأحدا ، وسائر المشاهد ، واستشهد فى حروب الردة . قدمه خالد بن الوليد هو وثابت بن أقرم العجلانى طليعة يوم بزاخة لقتال طلَيحة الأسدى . تعاون عليه طليحة وأخوه سلمة فقتلاه بعد ما قتل سلمة ثابتا . فمات شهيدا رحمة الله .

أخبار تتعلق به :

١ — سبقك بها عكاشة :

ثبت فى الصحيح : أن رسول الله (ص) ، قال : «ويَدْخُل الجنةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُون ألفاً ، تُضِيء وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القمرِ ليلةَ البدر » ! ! .

فقام عكاشة بن محصن فقال : « ادع الله بأن يجعلنى منهم . فقال : اللهم اجعله منهم . ثم قام رجل آخر فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى

منهم ، فقال رسول الله (ص) : سبقك بها عكاشة » فجرت هذه الكلمة النبوية مثلا يضرب لمن أراد أمرا قد سبقه به غيره .

بيان :

كانت ساعة إجابة وانقضت ، فبردت الدعوة لصاحبها . أو كان يستحق الدعوة من سبق إليها برغبته مبتدئا دون من جاء ثانيا تابعا . وفضيلة السبق لها أثرها .

٢ — سيفه الذى يسمى العون :

كان عكاشة قد أبلى البلاء الحسن يوم بدر : فضرب بسيفه حتى انقطع فى يده ، فناوله رسول الله (ص) جذلا من حطب ، وقال:قاتل بهذا ياعكاشة فلما أخذه وهزه عاد فى يده سيفا صارما طويلا .

بيـان :

ذكر هذا ابن إسحق وغيره .

وانقلاب الجذل سيفا هو من جنس ما تواتر تواترا معنويا من تأثر المواد الجامد بلمسه أودعائه . والذى كمل الله روحه حتى تزكت على يده نفوس تلك الأمة الأمية ، المنغمسة فى حمأة الشرك والوثنية ، حتى كان منها فى أقرب وقت هداة البشرية — ليس بكثير فى حقه أن تتأثر بلمسه الجمادات ! !

إقادة الرسول (ص) له من نفسه :

روى أبو نُعيم فى «الحِلْية» ، حديثا فى وفاة رسول الله (ص) مُطوَّلا ، وفيه : أن رسول الله أعطى قضيبا لعكاشة ليقتص لنفسه من رسول الله بضربة كان ضربه رسول الله (ص) إياها بذلك القضيب . وهو حديث موضوع ، قال السيوطى : آفته عبد المنعم . وقال ابن الجوزى : هذا حديث موضوع لا محالة .

كافأ الله من وضعه ، وقبح من شين الشريعة بمثل هذا التخليط البارد ، والكلام الذى لا يليق بالرسول ولا بالصحابة .

والمتهم عبد المنعم بن إدريس ، قال أحمد بن حنبل : كان يكذب على وهب . وقال يحي كذاب خبيث ، وقال ابن حبان كان يضع الحديث على أبيه وعلى غيره اهـ .

تنبيه وتحذير :

ذكرنا هذا الحديث الموضوع الذى رواه أبو نعيم فى كتابه « حلية الأولياء» لننبه على وضعه، ولنحذر قراء «الحلية» ، وقد طُبعَت منها أجزاء — من الاعتماد على كل ما فيها ، فإن كثيرا من المنتسبين للعلم يغترون باسم الكتاب ، واسم المؤلف ، فيتناولون كل ما فيه من الأحاديث بالقبول والتسليم كأنه ثابت صحيح ، مع أننا نجد فيه مثل هذا الحديث الموضوع الذي قال فيه ابن الجوزى ما قال .

القـدوة :

هذا الصحابى البدرى الجليل قد دل بسؤاله الدعاء — أن يكون من السبعين على حرصه على الكمال ، ورغبته فى الفوز بأعلى الدرجات ، وخوفه من الحساب ، ولم يكن سؤاله ذلك منافيا لإخلاصه لله فى عبادته ، ولاحاطا شيئا من درجته ، بل كان سببا لفوزه بتلك الدعوة ، ونيله تلك المنزلة .

فنعم القدوة هو (رض)— فى العمل لله مع الرجاء فى فضله ، وطلب المزيد منه ، والخوف من عقابه وطلب البعد عنه .

هذه هى سنة عباد الله الصالحين،وفيها أبلغ الرد على المتنطعين المتكلفين .

رزقنا الله اتباعهم فى هديهم : هدى محمد ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ورضى عنهم وأرضاهم .

النعمان بن عدى العدوى

رضى الله عنه

نسبه :

النعمان بن عدى بن نضلة القرشى العدوى ، من قوم عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

سابقته :

هاجر هو وأبوه عدى إلى الحبشة ، ومات أبوه بها .

ولايته وعزله:

ولاه عمر رضى الله عنه ميسان (١) ثم عزله ،فنزل البصرة فلم يزل بها يغزو مع المسلمين حتى مات .

وهكذا كانوا — رضوان الله عليهم — لا يؤثر عليهم العزل ، فهم يعملون للإسلام فى سبيل الله فى أيام العزل ، مثل أيام الولاية .

---

(١) ميسان : بين البصرة وواسط بالعراق .

خاصتان له :

الأولى :

أنه هو أول وارث في الإسلام ، وأبوه الذى مات فى الحبشة أول موروث .

والثانية :

أنه هو الوحيد من بنى عدى الذى ولاه عمر ، ولم يول عمر رجلا من قومه سواه ، قطعا لكل قالةسوء،وبعدا عن«المحسوبية» ومحاباة الأقربين.

أدب وقدوة :

لما ولاه عمر ميسان : أراد زوجته على الخروج معه . . فأبت عليه ، فكتب إليها بهذه الأبيات؛ ليثير غيرتها فيحملها على اللحوق به:

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها «بميسان»يسقى من زجاج وحنتم(١)
إذا شئت غنتنى دهاقين قرية وصناجة تحذو على حرف منسم(٢)

---

(١) الحنتم : جرار خضر .

(٢) الدهاقين : التجار ورؤساء الأقاليم . والصناجة : مغنية تضرب بالصنج وهى قرصان من نحاس تضرب إحداهما بالأخرى تحذو : تقعى على أطراف أصابعها منتصبة القدمين . والمنسم : أصله أحدظفرى البعير . والمراد أنه يشرب على النغم والرقص .

فإن كنت ندمانى .فبالأكبراسقنى ولا تسقنى بالأصغر المتثلم(١)

لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا فى الجوسق المتهدم(٢)

فلما بلغ ذلك عمر كتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير) .

أما بعد :

فقد بلغنى قولك : لعل أمير المؤمنين . . . البيت ، وأيم الله لقد ساءنى ذلك ، وقد عزلتك .

فلما قدم على عمر وسأله ؟ قال: والله ما كان من ذلك شىء ، وما كان إلا فضل من شعر وجدته ، وما شربتها قط .

فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن لا تعمل لى عملا أبدا .

ما أنكره عمر :

برأ نعمان نفسه فصدقه عمر ، ولم يذكر له شأنه مع زوجته ، تكرما

---

(١) أى اسقنى بالكأس الأكبر السليم . ولا تسقنى بالأصغر الذى كسر شىء من شفته . (٢) الجوسق : هو القصر .

وكانوا على مكانتهم فى الدين يتوسعون فى الأدب ، ويقرضون الشعر على حكم الخيال والفن .

ولم ينكر عليه عمر ذلك . وإنما كره أن يكون من أميره ما يكون من سائر الناس ، وللامارة هيبتها اللازمة للضبط والتنفيذ ، أو أن يجد أحد من أحد ولاته سبيلا للطعن ، ولو بشبهة ، والولاية يجب أن تكون بعيدة عن المطاعن والشبهات ، فما يسوغ لعموم الناس — قد لا يحتمل لبعضهم بحكم المقام والمنصب .

وقد قال الله تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن »

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينزل الناس منازلهم .

نعمان بن عمرو النجارى الأنصارى

رضى الله عنه

سابقته ومشاهدته :

شهد العقبة الأخيرة ، وشهد بدرا ، وأحدا ، والخندق ، والمشاهد كلها .

ظرفه[١] ونوادره :

كان ظريفا كثير الدعابة والمزاح ، حتى يبلغ به ذلك إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن ذلك ما يلى :

١ — كان لا يدخل المدينة طرُفة إلا جاء بها إلى النبى (ص) ، فيقول : ها أهديته لك . فإذا جاء صاحبها يطلب الثمن ، أحضره إلى النبى (ص) وقال: أعط هذا ثمن متاعه ، فيقول (ص) ، أو لم تهده لى ؟ فيقول : إنه والله لم يكن عندى ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك (ص) ويأمر لصاحبه بثمنه .

٢ — وخرج مرة مع أبى بكر رضى الله عنه فى تجارة إلى بصرى ، ومعهما سويبيط بن حرملة البدرى ، وكان سويبيط متوليا على الزاد ، فجاء نعمان فقال : أطعمنى ، فقال : لا . حتى يجىء أبو بكر ، فقال : لأغيظنك .

---

(١) الظرف هو الكياسة .

فذهب إلى قوم ممن جلبوا إبلا إلى السوق ، فقال لهم : ألا تبتاعون منى غلاما عربيا فارها وهو ذو لسان ، ولعله يقول لكم : أنا حر . فإن كنتم تتركونه لذلك . . فدعوه من الآن ، ولا تفسدوا على غلامى . فقالوا : بل نبتاعه منك بعشر قلائص[١] . فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا .

فقال القوم لسويبيط : قد اشتريناك من سيدك .

فقال : هو كاذب ، أنا رجل حر .

قالوا : قد أخبرنا خبرك ، وطرحوا الحبل فى رقبته وذهبوا به .

وجاء أبو بكر وأصحاب له فأدركوا القوم ، وردوا إليهم القلائص ، وعرفوهم الحقيقة .

فضحك رسول الله (ص) وأصحابه (رض) من هذه النادرة مدة عند ما يتذكرونها .

٣ — وقدم أعرابى ، فدخل على النبى (ص) ، وأناخ ناقته بالفناء ، فقال بعض الصحابة للنعيمان لو عقرتها فأكلناها ، فإنا قد قرمنا إلى اللحم[٢] ؟ ففعل فخرج الأعرابى فصاح (واعقراه) يا محمد .

فخرج النبى (ص) ، فقال : من فعل هذا ؟ فقال : النعيمان . فأتبعه يسأل

(١) القلوص والقلائص من النياق : الشابة .
(٢) القرم من اشتدت شهوته إلى اللحم .

عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير ، واستخفى فى سرب لها ، وجعل عليه السعف والجريد .

فأشار إليه رجل ورفع صوته يقول : مارأيته يا رسول الله ، ويشير بأصبعه حيث هو ، فأخرجه رسول الله (ص) ، وقد تغير وجهه بالسعف الذى سقط عليه ، وقال له ما حملك على ما صنعت؟ قال : الذين دلوك على يارسول الله، هم الذين أمرونى . فجعل رسول الله (ص) يمسح عن وجهى ويضحك ، ثم غرمه رسول الله (ص) للأعرابى .

الإسلام دين السماحة والسجاحة :

هؤلاء هم خيار الأمة ، وهم أهل الصدق والجد ، وذوو القوة فى الحق والصلاة فى العقيدة ، وهكذا كانوا أهل سماحة وسهولة وسجاحة ولين فى الحالة الاعتيادية . حتى ينفق[1] بينهم مثل هذا الظروف والمزاح والدعابة .

فإذا جد الجد فهم هم . !!

فالتزمت والعبوس خشونة ويبوسة فى الخلقة ،أو تكلف ورياء،وحسبك بهما من شرين .

وقد كان النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — يمزح ولا يقول إلا حقافلا يبلغ المزاح بكبار الناس إلى ما بلغ إليه نعيمان،ولكن لا تضيق أخلاقهم بمثله

---

(١) ينفق : يروج

نقص رجح به الكمال :

كان نعيمان رجلا صالحا ، وكان يصيب من الشراب ! ! فيجاء به إلى النبى (ص) ، فيقيم عليه الحد . ولعنه رجل مرة ، فقال النبى (ص) : لا تفعل إنه يحب الله ورسوله .

قد كان الحد له طهرة ، وكانت التوبة له مرجوة ، وكان عنده من محبة اللهورسوله مايرجح بذلك النقص والبلية، ولعن المعين لا يجوز .

سؤال وجوابه :

أتقول : كيف كان يحب الله ورسوله ، ويشرب الخمر ؟!

فنقول : قدبرهن علىصدق حبه لله ورسوله ، ببذله نفسه فىتلك المشاهد العظيمة التى شهدها ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود[1] .

وأى دليل أدل على صدق الحب من بذل النفس ؟

وأين تقع عبادة ذلك المتعبد الجثامة المنزوى[2] ، الحريص على الحياة ، من ذلك المسلم العادى الذى نصب نفسه هدفا للبلايا والمحن ، واقتحم أسباب الهلاك فى سبيل الله ، علىهنات فيه ؟

---

(١) هذا شطر بيت ، وتمامه:

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(٢) يقال : رجل جثامة : أى لا ينهض لمكرمة . والمنزوى : الهياب المتباعد والجبان .

هذا — والله — أنفع لعباد الله ، وأصدق حبا لله ، وأقرب إلى رضوانه ، وأدنى إلى المتاب عليه ، لأنه من الذين باعوا لله أنفسهم وأموالهم ، فاستبشروا ببيعهم الذى بايعوا به .

« ذلك هو الفوز العظيم » .



نِسَاءُ السَّلَفِ

أم حرام بنت ملحان

رضى الله عنها

نسبتها :

النجارية الأنصارية ، خالة أنس بن مالك ، وأخت أم سليم ، وزوجة عبادة بن الصامت .

مكانتها :

كان النبي (ص) يكرمها ، ويزورها فى بيتها ، وما كان ذلك إلا لكمال فى دينها وصلاحها ، وقد ظهر أثر هذا الدين والصلاح فى مبادرتها لطلب الدعاء من النبي (ص) أن تكون من الغزاة فى البحر[1] ، لما ذكر لها ما عرض عليه فى نومه من أناس من أمته كالملوك على الأسرة ، غزاة فى البحر ، وعودها إلى الطلب لما ذكر لها مثلهم فى المرة الثانية ، حتى قال لها : أنت من الأولين .

علامة الإيمان الحق :

امرأة تسمع بالغزو ، وفى البحر ، فلا يهولها الغزو وما فيه من مشقة ، وما وراءه من القتل ، ولا البحر وأهواله ، وهى امرأة لم تعتد ركوبه ، ولا

---

(١) راجع كتاب «من الهدى النبوى» للامام ابن باديس .

تعرف عنه إلا أنه خلق عظيم ، ذو هول كبير ، وخطر شديد قريب،لا يقف أمامها لاهذا ولا ذاك ، وإنما يقف أمامها ، ويستولى على نفسها ، ويحيط برغبتها منزلة الشهادة،وما فيها من الأجر والمثوبة ،وما رما وراءها من الخير والكرامة ، فيحرص ذلك الحرص ، وتؤكد الطلب ، وتعود إليه مرة بعد أخرى .

هذا — والله — الإيمان حقاً ! !

والرغبة فى العمل الصالح صدقاً ! ! وبذل أعز ما عند الإنسان للخلقة فى طلب مرضاته ! !

صدقت أم حرام قولها بفعلها :

فلما خرج زوجها مع معاوية لغزو جزيرة قبرص . . خرجت معه ، وماتت فى تلك الغزاة لما خرجت من البحر ، ونزلت أرض الجزيرة ، ودفنت بها . وذكر هشام بن عمار الخطيب المقرىء الثقة ، أنه رأى قبرها بقبرص ووقف عليه .

فرحمة الله عليها من امرأة صالحة ، ومؤمنة صادقة فى نساء المسلمين .

الربيع بنت معوذ

رضى الله عنها

اسمها ونسبها :

هى الربيع مُعَوِّذ ، من بنى عدِىّ بن النّجار الأنصارية .

سابقتها ومشاهدها :

ممن حضرن بيعة الرضوان ، وكانت ممن يغزون مع النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — من النساء . كن يخدمن الجيش ، ويسقين الماء ، ويقمن على الجرحى فيداوينهم ، ويحملنهم فيرددنهم إلى المدينة .

قدرها ومنزلتها :

كان لها قدر عظيم ، ومنزلة رفيعة ، فقد كانت من بيت شهد عدة من رجاله بدراً ، ومنهم من استشهد بها ، وهى من الغازيات كما تقدم .

ومن قدرها هذا : أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم : جاءها غداة عرسها ، فعقد على فراشها ، وجعلت جويريات من الأنصار يضربن بالدف ويذكرن من قتل من آبائهن يوم بدر ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم يسمع ويقرهن على ضربهن وغنائهن ، حتى قالت إحداهن :

(وفينا نبي يعلم ما فى غد) فقال لها : « دعى هذه ، وقولى بالذى كنت تقولين » .

حكاية طريفة عنها :

كانت يوما فى نسوة فدخلت عليها أسماء بنت مَخْرَبَة تبيع العطر . — وأسماء هذه أم أبى جهل — والربيع أبوها أحد من قتل أبا جهل — فلما عرفتها أسماء قالت لها : أنت ابن قاتل سيده ، قالت الربيع : بل قاتل عبده . فقالت أسماء : حرام على أن أبيعك من عطرى شيئاً ، قالت الربيع : حرام على أن أشترى منه شيئاً . وقالت — لتغيظها — : ما وجدت لعطر نتناً غير عطرك ، وافترقتا على غضب وقطيعة .

الفوائد والأحكام :

١ — النساء فى الحرب :

ما كانت تقوم به الربيع ، ومن معها من النسوة فى الغزو أصل لتأسيس فرقة النسوة الممرضات فى الجيش ، ويستتبع ذلك لزوم تهيئتهن لذلك بتعليمهن — غير مختلطات بالرجال — ما يحتجن إليه فى الحرب من القيام بعملهن والدفاع عن أنفسهن ، واستعمال ما يقيهن من الهلاك ، مع تدريبهن على ذلك كله ، وتمرينهن عليه . لأن الشارع قد أقر هذه المصلحة ، فكل ما تتوقف عليه في أصلها أو كمالها وإتقانها فهو مشروع .

٢ — إقرار الحق وإنكار الباطل :

الضرب بالدف والغناء فى العرس ، وذكر الأموات بمحامدهم ومقاماتهم ، كل هذا مشروع فأقر النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — الجويرات عليه :

أما علم أحد من الخلق : الأنبياء فمن دونهم بما يكون فى المستقبل فباطل ممنوع قوله واعتقاده . ولهذا نهاهن النبى صلى الله عليه وآله وسلم عنه ، وأمرهن أن يعدن إلى ما كن فيه. ولا ينافى هذا أن الله قد يطلع بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، على بعض ما يكون فى المستقبل ، لأنه علم محدود فى شىء مخصوص كان بإعلام الله ، فلا يتجاوز علمهم إلى ماعداه مما فى أحشاء المستقبل من الغيب ، ولا لما فى الحال منه مما لم يُعلموا به وهكذا كانت سنة صلى الله عليه وآله وسلم : يقر الحق ويرتضيه ، وينكر الباطل وينفيه .

حزازات النفوس :

لم تستطع الأيام ولا الدخول فى الإسلام أن تمحو أثر حزن أسماء على قتل أبى جهل ابنها ، فما عرفت ابنة أحد قاتليه حتى نفثت بما فى صدرها ، ولم تستطع أن تعامل — بالبيع والشراء — من رأت فى وجهه وجه قاتل أبيها .

ولا يقدح هذا فى إسلامها ، لأن ما كان منها كان عن طبع لاتقوى خلقة الأنثى على مقاومته . ومن هنا نعلم : أن مما تتحتم مراعاته فى النساء ، هو هـذه الناحية الضعيفة الحساسة ، فيتحرز دائماً من عدم إثارة ما يحرك ما تبقى آثاره كامنة فى نفوسهن من فقد عزيز ، أو لحوق مكروه .

القدوة :

هؤلاء السيدات الصحابيات رضى الله عنهن ، قد كن يشاركن الرجال فى الحرب ، وهى أبعد الأشياء عن طبعهن ، ويقمن معهم بما يليق بهن .

فلنا فيهم وفيهن القـدوة الحسنة . . أن نشرك معنا نساءنا فيما نقوم به من مهام مصالحنا ، ليقمن بقسطهن مما يليق بهن فى الحياة — على مايفرضه عليهم الإسلام من صون ، وعدم زينة وعدم اختلاط ، ولن تـكمل حياة أمة إلا بحياة شطريها الذكر والأنثى .

نسأل الله أن ينهض بنا رجالا ونساء فى خدمة الإسلام ، وفى دائرة الإسلام ، إنه القريب المجيب .

سُمَيَّة بنت خَيَّاط

رضى الله عنها

نسبتها :

هى أمة لأبى حذيفة بن المغيرة المخزومى ، زوجها لحليفه ياسر العنسى فولدت له عمّارا ، فأعتقه أبو حذيفة ، فبينها يرتبط — ولاء وحلفا — بنى مخزوم من قريش .

إسلامها وسابقتها :

من السابقين الأولين هى ، وزوجها ، وولدها ! !

تعذيبها واستشهادها :

كانت هى وزوجها وإبنها يُعذبون أشد العذاب فى الله ، فيمر بهم النبي صلى الله وآله وسلم وهم يعذبون بالأبطح فى رمضاء مكة ، فيقول : « صبرا يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » . فقتل زوجها فى العذاب ، وأعطى عمار بلسانه ما سأله منه المشركون ، وفيه وفى مثله نزل قوله تعالى : « إلاَّ أن تتقوا مِنْهم تُقاةً »

وأما هى ، فإن أبا جهل طعنها بالحربة فى قُبُلها حتى قتلها ، وهى يوم ذاك عجوز كبيرة ضعيفة ! ! فكانت أول شهيد فى الإسلام .

أوليات النساء فى الإسلام :

لا تقوم الحياة إلا على النوعين اللذين يتوقف العمران عليهما ، وهما الرجال والنساء .

وفى الإسلام : كتابه[١] وحياة رسوله (ص) وتاريخ بدايته — آيات وأنباء ووقائع .. تدل على ذلك ، وتدعو إلى اعتباره والعمل بموجبه .

وانظر إلى حظ المرأة فى السبق إلى تأييد الإسلام بالنفس والمال ، والعطف والحنان .

فأول مال وجده رسول الله (ص) هو مال خديجة ، وأول عطف لقيه وأول قلب انفتح لسماع كلمة النبوة — كما فى حديث بدء الوحى — هو عطف خديجة ، وقلب خديجة ، وأول شهيدة فى الإسلام — كما اتفق عليه علماء السيرة — هى سمية .

فلن ينهض المسلمون نهضة حقيقية إسلامية — إلا إذا شاركتهم المسلمات فى نهضتهم فى نطاق عملهن ، الذى حدده الإسلام ، وعلى ما فرضه عليهن من صون واحتشام .

---

(١) القرآن الكريم .

الأسوة :

هذه سنة الله عرفناها فى تاريخ البشرية : لا بد فى سبيل الحق من ضحايا . ولقد كانت هذه العجوز الضعيفة مثلا رائعا فى الصبر والثبات واليقين ، حتى فازت بتلك الأولية .

وكانت فى ذاك أحسن قدوة — لا لخصوص النسوة — بل لأهل الرجولة والقوة .

فاللهم إيمانا كإيمان هذه العجوز ، وصبرا كصبرها ، وشهادة كشهادتها

آمين يا رب العالمين .

الشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية

رضى الله عنها

سابقتها :

أسلمت قبل الهجرة ، وكانت من المهاجرات الأول .

منزلتها الشخصية :

كانت من عاقلات النساء وفضلياتهن ، وكانت تحسن الكتابة ، وهى التى قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا تعلمين هذه — حفصة — رقية النملة ، كما علمتها الكتابة[١] » .

منزلتها فى المجتمع :

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرعاها ويفضلها ويقدمها فى الرأى ، تقديرا لسابقتها وعقلها ومعرفتها وفضائلها ، وكان ربما ولاها شيئا من من أمر السوق .

الاقتداء :

تتعلم المرأة الكتابة ، وتعلم غيرها ، وتتولى تدبير أملاكها وتجارتها

---

(١) راجع كتاب « من الهدى النبوى » للإمام ابن باديس .

وما تستطيعه من عمل عام . كما تولت الشفاء أمر السوق فى بعض الأحيان، ولاشك أن مما أهلها لذلك عند عمر معرفتها بالكتابة .

تحذير :

يجرى على الألسنة مارواه الطبرانى فى الأوسط : عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا : « لا تنزلوهن الغرف ، ولا تعلموهن الكتابة ، وعلموهن الغزل وسورة النور» .

قال الشوكانى : فى سنده محمد بن إبراهيم الشامى ، قال الدارقطنى : كذاب .

وكثيرا ما تكون هذه الأخبار الدائرة على الألسنة باطلة فى نفسها معارضة لما صح فى غيرها فيجب الحذر منها ، وقد قدمنا من أدلة تعلم النساء الكتابة مافيه الكفاية [1] .

---

(١) راجع كتاب « من الهدى النبوى » للإمام ابن باديس .

هند بنت عتبة

رضى الله عنها

نسبتها :

هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، زوجة أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، وأم معاوية بن أبى سفيان .

أسلمت يوم فتح مكة ، بعد إسلام زوجها .

كيف أسلمت ؟

بات المسلمون الليلة الموالية ليوم الفتح يصلون بالمسجد الحرام ، فرأت هند منهم ما لم تعهد . فقالت والله ما رأيت الله عبد حق عبادته فى هـذا المسجد قبل الليلة ، والله إن باتوا إلا مصلين قياما وركوعا وسجودا ، وأرادت المجىء إلى النبى (ص) وخافت من ماضيها فى الجاهلية ، فذهبت إلى عمر فجاء معها ، فاستأذن لها ، فدخلت وهى متنقبة ، فأسلمت .

ولما بايع النبى (ص) النساء وهى معهن ، ومن الشرط فيها : وألا يسرقن ولا يزنين ، قالت هند : وهل تزنى الحرة وتسرق يا رسول الله ! !

فلما قال : ولا يقتلن أولادهن ، قالت : قد ربيناهم صغارا وقتلتهم ببدر كبارا ، ثم رجعت إلى بيتها ، فجعلت تضرب صنما لها بالقدوم حتى فلذته فلذة فلذة وتقول : كنا معك فى غرور .

صدق إسلامها :

أسلمت متأثرة بما رأت من حال المسلمين ، وبادرت إلى كسر صنمها ، وأصبحت تريد أن تعرف ما يحل لها وما يحرم فى الإسلام : فشكت إلى النبى (ص) فقالت إن أبا سفيان رجل مِسيكٌ بخيل ، وأنه لا يعطيها من الطعام ما يكفيها وأولادها إلا ما أخذت منه بغير علمه ، فهل عليها من حرج ؟

فقال لها رسول الله (ص) : خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك أنت وولدك . فما كانت تفعله قبل إسلامها ، ولا تتحرج منه . . أصبحت بعده متحرجة عن حكم الله فيه ، وما ذلك إلا من صدق إسلامها وإخلاصها فيما آمنت به .

أخلاقها :

كانت امرأة لها نفس وأنفة ، وفيها صراحة وجراءة واعتداد بنفسها ، وقصتها فى الجاهلية مع أول أزواجها : الفاكه بن المغيرة ، وقصة اختيارها للأزواج وغيرها مظهر من مظاهر هذه الأخلاق . وما فى حديث إسلامها من مراجعتها للنبى (ص) من تلك الأخلاق . وأهل هذه الأخلاق إذا كفروا كفروا ، وإذا أسلموا أسلموا بصدق . وكذلك كانت هند في جاهليتها وإسلامها .

عبرة وقدوة :

انظر إلى الإسـلام الصادق كيف تظهر آثاره فى الحين على أهـله ! وكيف يقلب الشخص سريعـا من حال إلى حال ، وبه تعرف إسـلاما من إسلام ! !

وانظر إلى حلم النبى (ص) ، كيف قابل هـذه المرأة التى كان منها ما كان فى يوم أحد من أقوال وأعمال ، فضرب عن ذلك كله صفحا .

وكيف واجهته بما واجهته به عند قوله : « ولا يقتلن أولادهن » ، ثم أعرض عن ذلك كأنه لم يسمعه .

كل هـذا حلما وكرما وحرصا على هداية العباد ، فصلى الله عليه وآله وسلم من نبى كريم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ، خير قدوة للعالمين .

خاتمـــة

١ ـ أعيش للإسلام والجزائر (*)

قد يقول قائل : إن هذا ضيق فى النظر وتعصب للنفس ، وقصور فى العمل ، وتقصير فى النفع : فليس الإسلام وحده دينا للبشرية ، ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان ، ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحـد من أبناء الإنسانية ، ولـكل دين من أديانها حقه من الاحترام .

فأقول : نعم إن خدمة الإنسانية فى جميع شعوبها ، والحـدب عليها فى جميع أوطانها واحترامها فى جميع مظاهر تفـكيرها ونزعاتها — هو ما نقصده ونرمى إليه ، ونعمل على تربيتنا وتربية من لنا عليه حق ، ولـكن هـذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ، ونفعها دون واسطة ، فوجب التفـكير فى الوسائل الموصلة إلى تحقيق هـذه الخدمة وإيصال هذا النفع .

ونحن لما نظرنا فى الإسلام ، وجدناه :

١ — الدين الذى يحترم الإنسانية فى جميع أجناسها فيقول : « ولقد كرمنا بنى آدم » .

(*) مقالة للإمام نشرتها صحيفة البصائر بتاريخ ١٧ أبريل سنة ١٩٥٢ م بمناسبة ذكرى وفاته ذكرناها كما وعدنا فى المقدمة.

٢ — ويقرر التساوى والأخوة بين جميع تلك الأجناس .

٣ — ويبين أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتفضيل ، وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فيقول :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

٤ — ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم بما يجمعها من وحدة الأصل ، ووشائج القرابة ، القريبة والبعيدة ، فيقول : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .

٥ — ويقرر التضامن الإنسانى العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع ، والإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع ، فيقول : «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

٦ — ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها، ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها فيقول : « لكم دينكم ولى دين » .

٧ — ويقرر شرائع الأمم ويهون عليها شأن الاختلاف .

ويدعوها كلها إلى التسابق فى الخيرات فيقول : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » .

٨ — ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق فيقول : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » .

٩ — ويحرم الاعتداء تحريما عاما على البغيض والحبيب فيقول : « ولايجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعدوا » .

١٠ — ويأمر بالإحسان العام فيقول : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان».

١١ — ويأمر بحسن التخاطب العام فيقول : «وقولوا للناس حسنا» .

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا فى الإسلام — وهو الدين الذى فطرنا عليه الله بفضله — علمنا أنه دين الإنسانية الذى لا نجاة لها ولا سعادة إلا به وإن خدمتها لا تكون إلا على أصوله ، وإن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه .

فلنعاهد الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته ، وخدمة كل ما هو بسبيله ومن ناحيته .

فإذا عشت له فإنى أعيش للإنسانية : لخيرها وسعادتها فى جميع أجناسها وأوطانها وفى جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها . وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذى ندين به ، ونعيش له ، ونعمل من أجله .

فهذا معنى قولى : إننى أعيش للإسلام .

* * *

أما الجزائر :

فهى وطنى الخـاص الذى تربطنى بأهله روابط من المـاضى والحاضر والمستقبل بوجه خاص . وتفرض على تلك الروابط لأجله — كجزء منه — فروضاخاصة ، وأنأشعر بأن كل مقوماتى الشخصية مستمدة منه مباشرة .

فأرى من الواجب أن تـكون خدماتى أول ما تتصل بشىء تتصل به مباشرة . وكما أننى كلما أردت أن أعمل عملا وجدتنى فى حاجة إليه : إلى رجاله ، وإلى ماله ، وإلى حاله وإلى آلامه ، وإلى آماله .

كذلك أجدنى ، إذا عملت ، قد خدمت بعملى ناحية أو أكثر مما كنتفى حاجة إليه هكذا .

هـذا الاتصال المباشر أجده بينى وبين وطنى الخاص فى كل حال وفى جميع الأعمال .

وأحسب أن كل ابن وطن يعمل لوطنه لا بد أن يجد نفسه مع وطنه الخاص فى مثل هذه المباشرة وهذا الاتصال .

نعم، إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزةعلينا هى دائما منا على بال ، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بدأن نـكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص .

وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى ، والمغرب الأقصى ، اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد: لغة ودينا وعقيدة ، وآدابا ، وأخلاقا ، وتاريخا ومصلحة ، ثم الوطن العربى والإسلامى ، ثم وطن الإنسانية العام .

ولن نستطيع أن نؤدى خدمة مثمرة لشىء من هذه كلها إلا إذا خدمنا الجزائر .

وما مثلنا فى وطننا الخاص — وكل ذى وطن خاص — إلا كمثل جماعة ذوى بيوت من قرية واحدة ، فبخدمة كل واحد لبيته تتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية ، ومن ضيع بيته فهو لما سواه أضيع ، وبقدر قيام كل واحد بأمر بيته تترقى القرية وتسعد ، وبقدر إهمال كل واحد لبيته تشقى القرية وتنحط .

فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للإضرار بسواها — معاذ الله — ولكن لنفعها ، وننفع ما اتصل بها من أوطان الأقرب فالأقرب .

هذا هو مرادى بقولى : (إننى أعيش للجزائر) .

(فليحيا الإسلام ، ولتحيا الجزائر)

عبد الحميد بن باديس

٢ — وبعـــد

أيها القارىء الـكريم :

نرجو أن تـكون رحلتك فى هذا الـكتيب للإمام المبرور رحلة ممتعة ، عدت منها بالعبرة والعظة من هذه النماذج الطاهرة .

لم يقصد الإمام لها تأريخا ، وإنمـا قصد أولا وبالذات عرض هـذه الشخصيات الفذة ليعيها ويعيش حياتها ، من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد :

فساق العظة فى قالب تاريخى .

وأظهر العبرة من طوايا شخصية .

وأبان العظمة فى صورة قصة .

* * *

رأى الإمام مواطنيه وقتئذ مغلوبين على أمرهم : فيقضى الأمر حين تغيب تيم ، ولا يستأذنون وهم شهود ، فخاف أن تمحى الشخصية الجزائرية ، وأن يطمس الاستعمار — كعادته — معالم ديننا الحنيف ولغتنا الحيـة الخلاقة . . .

فنصب الإمام عبد الحميد بن باديس نفسه رائدا ومعلما ، يدعو إلى الخير ويرشد أمته ، ويقوض أركان الجهل والظلم ، ويرفع عن أمته نير العبودية والاستعمار ، ويدعو إلى سبيل ربه بالحـكمة والموعظة الحسنة .

فبعث الحياة الحرة الكريمة فى شعبه ، وأصبح مسجده مصدر إشعاع ونور وأمسى ناراً على المبطلين .

* * *

ويجد القارىء لهذه النماذج الحية :

(أ) تربية دينية مثلى من الإمام للشعب ، ودعوة إلى التمسك بمبادىء الإسلام ومثله العايا ، والتخلق بأخلاقه ، واستعذاب الآلام فى سبيله .

(ب) كما يجد فيها الاستنباطات الذكية ، واستخلاص المفاهيم الإسلامية السليمة وتصحيح المفاهيم الخاطئة .

(ح) ويلمح أيضا الدور الإيجابى البناء لنساء الإسلام ، ووضع المرأة العربية وشخصيتها وإسهامها فى بناء المجتمع الإسلامى :

أولا:

١ — ففى قصة أبى ذر الغفارى تجد الشجاعة والجرأة فى الحق ، والاعتداد بحرية الرأى ، والتمسك بحرية الكلمة ، مع زهد صحيح وقناعة راضية ، وتصحيح مفتريات تاريخية ألصقها المغرضون بتاريخنا لحاجات فى نفس يعقوب .

٢ — وتجد المساواة الإسلامية الحقة فى قصة سيدنا بلال ، وما كان التفاضل بالإسلام إلا بالتقوى وصالح الأعمال .

٣ — وعند الحث على البذل والكرم ، يحكى الإمام عن الحجاج ابن علاط ، جواز الخدعة عند الضرورة حتى تكون النجاة بالمال

والنفس من عدو غادر ، وظالم غشوم .

٤ — وسعد بن الربيع الذى لم يكفه التنازل عن شطر ماله ، بل يعرض طلاق إحدى زوجتيه — التى تفضل — تفضلا منه لأخيه فى الإسلام .

ويعرض عن هذا العرض السمح عبد الرحمن بن عوف ، فيرشد إلى عفة المؤمن ، وضربه فى سبيل الرزق ، ومن يستعف يعفه الله .

٥ — ولا بد للأمة من مرشدين ناصحين ، ورائدين مخلصين ، يبصرونها ويرشدونها ، بالفقه والعلم ، والقدوة فى العمل ، مع البعد عما فى أيدى الناس ، حتى يحبهم النـاس ، ومتى تخلقنا بأخلاق عبادة ابن الصامت ، وكانت لنا بعض صلابته فى الدين — كان — ولا شك — الحال غير الحال ، والمـآل غير المـآل .

٦ — ويحرص عكاشة بن محصن على الكمال والشهادة فينيله الله مطلوبه .

٧ — ويعمل النعمان بن عدى حالة عزله بنفس الإخلاص ، الذى كان يعمل به حالة ولايته . فالجندى كالقائد فى الإسلام . وما يسوغ لعامة الناس لا يسوغ لخاصتهم ، ولذا أنكر عليه عمر .

٨ — والإسلام دين السماحة والبشاشة وقد كان الرسول يمزح ولا يقول إلا حقا . ولم تقدح الدعابة الحلوة والمزاح البرىء فى إسلام نعيمان بن عمرو ، ويضحك الرسول من قوله وفعله . وفى ذلك عبرة وعظة للمتزمتين والعبوسيين ومحترفى اليبوسة والخشونة .

ثانيا :

ويتحدث شطر الكتيب الثانى عن شقائق الرجال لفتاً إلى ما يجب ، وحثاً على واجب ، وتقويما لواقع مرتعينته المرأة المسلمة وقتئذ :

١ — فأم حرام لا تخاف الغزو وركوب البحر ، وتتوق للجهاد وتحب الشهادة ، وتحرص عليها .

٢ — والربيِّع بنت معوذ تسير مع الجيش مقاتلة ، وممرضة ومشجعة ، فإذا جاءت الأفراح أشاعت البهجة بدفها وغنائها .

٣ — وتضرب سمية بنت خباط وأسرتها المثل الأعلى فى الصبر الصابر ، والإيمان الكامل ، واستعذاب أبشع الآلام فى سبيل إسلامهم ، وهم أسرة لا منتمى لهم فى القوم ، ولكن الإيمان مس شغاف قلوبهم فضربوا المثل لأهل البطولة والرجولة .

٤ — والشفاء القرشية تتولى التدريس وتدير الأعمال العامة والخاصة.

٥ — والإسلام يجب ما قبله فيفتح باب التوبة على مصراعيه وتقبل هند بنت عتبة تائبة مخلصة ، وتفتح صفحة جديدة وتستنكر أن تزنى العربية الحرة ، أو تسرق الأمينة . !

* * *

وهكذا عاش الإمام رائدا ومعلما ومرشدا وقائدا ، رحمه الله رحمة واسعة وأمطر عليه شآبيب رحمته ورضوانه ووفقنا جميعا إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين .

محمد الصالح رمضان — توفيق محمد شاهين

دليل الكتاب

رجال السلف

نساء السلف

مطبعة الكيلانى الصغير

٢٢ شارع غيط العدة - باب الخلق

٢٨ شارع البستان - باب اللوق

ت : ٩١٨٥٩٨ ، ٥٠٩٧٢

القاهرة